المناسبات بين آيات القرآن وسوره

د. صبرة الحسينى الرفاعى مرسى
الأستاذ المساعد بكلية الدراسات الإسلامية للبنات بالقاهرة

١٤٢٦هـ

القضايا التى اشتمل عليها البحث

- تعريف المناسبة .
- موقف العلماء من علم المناسبات .
- أهمية هذا العلم وثمرته .
- أنواع المناسبات .
- مناسبة أجزاء الآية .
- مناسبة الآيات .
- مناسبة نجوم السورة .
- مناسبة السور .
- أنواع مناسبة السور .
- المناسبة اللفظية .
- الخاتمة .

وإليك الحديث بالتفصيل عن هذه النقاط .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فلقد نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ منجماً بحسب الأحداث والأسباب على مدى ثلاث وعشرين سنة تقريباً ، فمنه ما نزل فى مكة ومنه ما نزل فى المدينة ، ومنه ما نزل بالليل ومنه ما نزل بالنهار ، ومنه ما نزل فى الحضر ، ومنه ما نزل فى السفر .

وقد تنزل السورة كاملة ، وقد تنزل متفرقة على أوقات متباعدة ، وقد تنزل الآية كاملة ، وقد ينزل بعض الآية وينزل بعضها الآخر فى وقت آخر .

وكلما نزل على الرسول ﷺ شىء من القرآن دعا أحد كتاب الوحى وأمره أن يكتب عنه ما نزل ، وأن يضعه فى موضعه من السورة ، إلى أن جمع القرآن الكريم قد بلغ من ترابط أجزائه ، وتماسك كلماته وجمله وآياته مبلغاً لا يدانيه فيه أى كلام ، مع طول نفسه ، وتنوع مقاصده ، وافتنانه وتلوينه فى الموضوع الواحد .

آية ذلك أنك إذا تأملت فى القرآن الكريم وجدت منه جسماً كاملاً ، ولمحت فيه روحاً مما يبعث الحياة والحس على تشابك بين أعضائه ، فبين كلمات الجملة الواحدة من التآخى والتناسق ما جعلها بديعة التجانس والتجاذب ، وبين آيات السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات ، وبين سور القرآن من التآلف ما جعله كتاباً معجزاً غير ذى عوج ، مما جعل للقرآن طابعاً معجزاً فى لغته ونظمه وترتيبه وبلاغته يعجز العلماء والبلغاء أن يحيطو بأسرار إعجازه ، وإن كانوا قد بذلوا فى ذلك جهوداً كبيرة إلا أن القرآن لا تنقضى عجائبه .

وتواصلاً لجهود العلماء والسير على طريقهم فقد ألهمنى المولى عز وجل أن أكتب فى جانب من جوانب إعجاز القرآن وهو موضوع : " المناسبات بين آيات القرآن وسوره " ، وذلك من خلال النقاط التالية :

أولا : تعريف المناسبة :

أ- تعريف المناسبة فى اللغة :

المناسبة : مصدر من ناسب يناسب مناسبة ، ومادة النون والسين والباء تدور حول معنى اتصال شىء بشىء ، ومنه النسب [(١)] .

قال ابن منظور : وناسبه شركه فى نسبه ، والنسيب المناسب ، والجمع نسباء وأنسباء ، وتقول : ليس بينهما مناسبة أى مشاكلة [(٢)] .

وقال الجوهرى : والنسب واحد الأنساب ، والنسبة بكسر النون وضمها ، وبينهما مناسبة أى مشاركة [(٣)] .

وقال صاحب المصباح يقال : بينهما نسب أى قرابة ، والمناسب القريب ، وبينهما مناسبة ، وهذا يناسب هذا أى يقاربه شبهاً [(٤)] .

إذن المناسبة فى اللغة : تعنى المشاركة والمشاكلة والمقاربة بأى وجه من الوجوه .

لذا يقول الزركشى رحمه الله تعالى : والمناسبة : المقاربة ، وفلان يناسب فلاناً أى يقرب منه ويشاكله ، ومنه النسيب الذى هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه ، وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما وهو القرابة ، ومنه المناسبة فى العلة فى باب القياس : الوصف المقارب للحكم لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم .

ولهذا قيل : المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول . وكذلك المناسبة فى فواتح الآى وخواتمها [(٥)] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤٢٣/٥ ، طبعة دار الكتب العلمية ، تحقيق / عبدالسلام هارون .

(٢) انظر : لسان العرب لابن منظور ٧٥٦/١ ، طبعة دار صادر . بيروت الأولى .

(٣) مختار الصحاح للرازى ٢٧٣/١ ، طبعة مكتبة لبنان ، بيروت ، تحقيق / محمود خاطر .

(٤) المصباح المنير للجوهرى ٦٠٢/٢ .

(٥) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٣٥/١ ، طبعة المكتبة العصرية صيدا – بيروت – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم .

ب- المناسبة فى الاصطلاح :

هى علة الترتيب ، أى علل ترتيب أجزائه بعضها ببعض ، أو بعبارة أخرى : هى المعنى الذى يربط بين سوره وآياته .. وإذا كان العلم الوضعى هو معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل الجزئية المندرجة تحت جهة واحدة ، فإن علم المناسبات هو : معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بعلل ترتيب أجزاء القرآن العظيم بعضها ببعض ، أو معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بالمعنى الذى يربط بين سور القرآن العظيم وآياته (١) .

قال السيوطى – رحمه الله تعالى – المناسبة : المشاكلة والمقاربة ، ومرجعها فى الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص عقلى أو حسى أو خيالى ، أو غير ذلك من أنواع العلاقات ، أو التلازم الذهنى كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين ونحوهما (٢) .

ثانيا : موقف العلماء من علم المناسبات :

انقسم العلماء بالنسبة إلى علم المناسبات إلى ثلاث فرق :

الفريق الأول : لم يهتم بهذا العلم إلا بعد فترة ليست بالقصيرة من تدوين العلوم ، إما لدقته التى لا تلوح لأى أحد ، وإما لعدم اشتراط بعض العلماء وجود تلك المناسبة بين كل الآيات أو بين كل السور .

يقول الزركشى – رحمه الله تعالى : " وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم ، وفوائده غزيرة " قال القاضى أبو بكر بن العربى فى سراج المريدين : " ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعانى ، منتظمة المبانى علم عظيم ، لم يتعرض له إلا عالم واحد ، عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه ، فلما لم نجد له حملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه " (٣) .

---

(1) انظر : علم المناسبات فى السور والآيات ص ٢٧ للدكتور / محمد بن عمر بازمول طبعة المكتبة المكية بالسعودية .

(2) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢١١/٢ ، طبعة دار الكتب العلمية- الأولى- بيروت – لبنان.

(3) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢١١/٢ ، طبعة دار الكتب العلمية- الأولى- بيروت – لبنان.

وقال الشيخ أبو الحسن الشهربانى : " أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ، ولم تكن سمعناه من غيره هو الشيخ الامام الأكبر أبو بكر النيسابورى ، وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب ، وكان يقول على الكرسى ، إذا قرىء عليه الآية : لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة " (١) .

الفريق الثانى من العلماء : اهتم بعلم المناسبات حيث صنفوا فيه المصنفات المفردة له ، كما ضمن بعض المفسرين تفاسيرهم كثيراً من لطائف هذا العلم ، ومن أبرز من اهتم بهذا العلم :

١- الإمام فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ فى تفسيره " مفاتيح الغيب " .

٢- الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥هـ فى تفسيره " نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور" وهو أوسع كتاب فى هذا العلم .

٣- الإمام أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطى المتوفى سنة ٨٩٧هـ فى كتابه : " البرهان فى ترتيب سور القرآن " .

٤- الإمام جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ فى كتابيه " تناسق الدرر فى تناسب السور " و " أسرار ترتيب القرآن " .

٥- الإمام محمود أفندى الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ فى تفسيره " روح المعانى " ؟

٦- الشيخ عبدالله محمد الصديق الغمارى الذى ألف كتاباً خاصاً عن المناسبة سنة ١٣٨٥ هـ أسماه " جواهر البيان فى تناسب سور القرآن " .

٧- الشهيد سيد قطب فى تفسيره " فى ظلال القرآن " ، فهو يربط بين الآيات أو بين أجزاء السورة أو بين السورتين بعبارات سلسة جذابة ، دونما تكلف أو تعسف ، يعز على الأكثرين مجاراته فى هذه الناحية .

٨- الأستاذ الدكتور / محمد أحمد يوسف القاسم الذى ألف كتاباً بعنوان : " الإعجاز البيانى فى ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره " (٢) .

---

(1) البرهان فى علوم القرآن ٣١/١ .

(2) طبع الكتاب بدار المطبوعات الدولية بميدان الجيش بالقاهرة سنة ١٩٧٩ .

٩- الدكتور / محمد بن عمر بازمول الذى ألف كتاباً بعنوان " علم المناسبات بين السور والآيات " (١) .

كما أن هناك العديد من أساتذة التفسير وعلوم القرآن الذين كتبوا فى هذا العلم من خلال كتبهم وأبحاثهم ضمن موضوعات علوم القرآن .

أما الفريق الثالث : فإنه يرى أن الترابط بين الآيات غير مطرد ، بل يرى موجوداً بينها فى أحوال ، ومنعوها فى أحوال أخرى . يقول الشيخ العز بن عبدالسلام: " المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة ، فى أحكام مختلفة ، ولأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض ، إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله وأحكامه بعضها ببعض ، مع اختلاف العلل والأسباب ، كتصرف الملوك والحكام والمفتين ، وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة ، وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض مع اختلافها فى نفسها ، واختلاف أوقاتها " (٢) .

وإذا كان الشيخ العز بن عبدالسلام يشترط لوجود المناسبة بين الآيات أن تكون فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، أما إن كان على أسباب مختلفة فلا يمكن أن يكون هناك ارتباط بين الآيات ، فإننا نجد الشيخ الشوكانى : يعتبر البحث عن المناسبة من قبل المفسرين تكلف لا يعود عليهم بفائدة ، وتكلم بمحض الرأى المنهى عنه فى الأمور المتعلقة بكتاب الله تعالى ، ويعتبر ذلك مفسدة تعثر فى ساحتها كثير من المحققين .

حيث قال فى تفسيره : " أعلم أن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم وخاضوا فى بحر لم يكلفوا سباحته ، واستغرقوا أوقاتهم فى فن لا يعود عليهم بفائدة ، بل أوقعوا أنفسهم فى التكلم بمحض الرأى المنهى عنه فى الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه ،

(1) طبع الكتاب بمطبعة المكتبة المكية بالسعودية .

(2) انظر ، البرهان فى علوم القرآن ٣٧/١ .

وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود فى المصاحف ، فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ، ويتنزه عنها كلام البلغاء ، فضلاً عن كلام الرب سبحانه ، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف ، كما فعله البقاعى فى تفسيره ومن تقدمه حسبما ذكر فى خطبته ، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقاً على حسب الحوادث المقتضية لنزوله ، منذ نزول الوحى على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عز وجل إليه ، وكل عاقل فضلاً عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها ، بل قد تكون متناقضة ، كتحريم أمر كان حلالاً ، وتحليل أمر كان حراماً ، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله ، وتارة يكون الكلام مع المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وتارة مع من مضى ، وتارة مع من حضر ، وحينا فى عبادة ، وحيناً فى معاملة ، ووقتاً فى ترغيب، ووقتاً فى ترهيب ، وآونة فى بشارة ، وآونة فى نذارة ، وطوراً فى أمر دنيا ، وطوراً فى آخرة ، ومرة فى تكاليف آتية ، ومرة فى أقاصيص ماضية .

وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ، ومتباينة هذا التباين الذى لا يتيسر معه الائتلاف ، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها ، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون ، والماء والنار ، والملاح والحادى ، وهل هذا إلا من فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من فى قلبه مرض ، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور ، فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون فى التناسب بين جميع آى القرآن ، ويفردون ذلك بالتصنيف تقرر عنده أن هذا أمر لابد منه ، وأنه لا يكون القرآن بليغاً معجزاً إلا إذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة ، وتبين الأمر الموجب للارتباط ، فإن وجد الاختلاف بين الآيات فرجع إلى ما قاله المتكلمون فى ذلك فوجده تكلفاً محضاً وتعسفاً بيناً ، انقدح فى قلبه ما كان عنه فى عافية وسلامة ، هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتباً على هذا الترتيب .

وإذا كان الأمر هكذا فأى معنى لطلب المناسبة بين آيات تعلم قطعاً أنه قد تقدم فى ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً ، وتأخر ما أنزله الله متقدماً ، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن ، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، وما أقل نفع هذا ، وأنزر ثمرته ، وأحقر فائدته ، بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع الأوقات ، وإنفاق الساعات فى أمر لا يعود بنفع على فاعله ، ولا على من يقف عليه من الناس ... ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التى تعثر فى ساحتها كثير من المحققين " [1].

وهذا القول من هذين العالمين فيه بعد ويقتضى النظر والبحث ، وكفانا مؤنة الرد عليهما الشيخ ولى الدين محمد بن أحمد الملوى أحد المشايخ المحققين للإمام الزركشى حيث قال : " قد وهم من قال لا يطلب للآى الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة ، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً ، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما فى الكتاب المكنون ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف ، وحافظ القرآن العظيم لو استفتى فى أحكام متعددة ، أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل ، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى ، ولا كما نزل مفرقاً ، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة ، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر فإنه " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " [2].

ويقول الأستاذ الدكتور/ إبراهيم خليفة بعد أن نقل رد ولى الدين الملوى على العز بن عبدالسلام : " إن القرآن العظيم مع تنزله فى هذه المدة المتطاولة (الثلاث والعشرين سنة) وعلى حسب الوقائع والمقتضيات ، قد تآلف فى ترتيبه المصحفى ، والذى شوفه به رسول الله ﷺ من قبل الوحى ، وشافه به أصحابه رضوان الله عليهم ، هذا التآلف العجيب البديع الذى تأخذ فيه كل سورة ، بل كل آية ، بل كل جملة ، بل كل

(1) انظر : فتح القدير له : ٥٢٠/٥ .

(2) انظر : البرهان ٣٧/١ ، والإتقان ١٠٨/٢ ، والآية أول سورة هود .

كلمة بحجزة أختها حتى لكأنه كله كلمة واحدة متناسقة المبنى رائعة المعنى ، وهو ما يستحيل مثله أتم الاستحالة وأبينها على غير منزل القرآن سبحانه وتعالى .

فإن أحدنا نحن البشر لو ألف كتاباً فى نفس المدة ، بل حتى فى أقصر منها وعلى نفس الظروف وحسب الحوادث ، ثم أتى ليرتبه على نسق واحد ، وفى أسلوب مترابط لا شأن له بمجرد السرد التاريخى مع تتابع الأحداث لكان أن يبلغ مناط الثريا ، وأن يمسك بالعيوق [1] أقرب له من أن ينال هذه الطلبة .

فانظر كيف ذهل الشيخ عز الدين رحمه الله عن هذه الحكمة البالغة من الروعة والإعجاز حتى جعل منها شبهة تمنع من تطلب الارتباط وتحصيل المناسبة بدلاً من أن يصنع منها حجة تضاف إلى حجج القرآن الدامغة لخصومه المدوية أبداً فى سمع الزمان يقول منزله الحكيم : " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً " [2].

وأياما يمكن الأمر فقد بان لك سقوط هذه الشبهة وخطأ الشيخ عز الدين وكل من لف لفه فى رفض تطلب المناسبة بين سور القرآن وبين آيات السورة الواحدة ، وأن الحق أبين الحق الذى ينبغى التعويل عليه فى هذه المسألة إذاً هو تطلب المناسبة بل أن هذا هو من تمام الإسهام فى بيان إعجاز الذكر الحكيم " [3].

ثالثاً : أهمية هذا العلم وثمرته :

إن إظهار المناسبات بين آيات القرآن وسوره يساعد على فهم النص القرآنى ويبين معناه ، ولهذا يقول الإمام البقاعى – رحمه الله تعالى : " علم مناسبات القرآن

(1) هذا مثل يضرب للتعجيز ، والعيوق كوكب أحمر مضئ بحيال الثريا فى ناحية الشمال ويطلع قبل الجوزاء ، سمى بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا ، والدبران : نجم بين الثريا والجوزاء ، سمى دبراناً لأنه يدبر الثريا أى يتبعها . انظر : كتاب لسان العرب ٣١٧٣/٤ (عوق) ، ١٢٢٠/٢ (دبر) لابن منظور .

(2) سورة النساء الآية ٨٢ .

(3) التفسير التحليلى لسورة النساء ص ٨٨ ط الأولى ١٩٩٣ م .

علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه ، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعانى لما اقتضاه الحال ، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك فى معرفة المقصود من جميع جملها ، فلذلك كان هذا العلم فى غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من علم النحو .

ويقول – أيضا – : " وهذا العلم يرسخ الإيمان فى القلب ، ويتمكن من اللب وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين : أحدهما : نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب ، والثانى : نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب " (١) .

ويزيد الزركشى الأمر وضوحاً فيقول : وفائدته : جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء (٢) .

يقول المرحوم الدكتور/ محمد عبدالله دراز طيب الله ثراه : وإذا كانت الفائدة من علم المناسبات إظهار الترابط والتناسق بين أجزاء الكلام حتى تبدو السورة كلها كأنها آية واحدة ، أو موضوع ذو أجزاء متماسكة ، وحتى يبدوا القرآن كله كأنه سلسلة مكونة من عدة حلقات كل حلقة آخذة بحجز أختها على أشد ما يكون الأخذ ، فإن أهميته تكمن فى أنه آية على صدق الرسول ﷺ ، وأن هذا الكتاب العزيز من لدن حكيم خبير لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إذ من المعلوم أن القرآن العظيم كان ينزل مفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، وقد تلقى الصحابة رضى الله عنهم عن رسول الله ﷺ ترتيب آيات القرآن وسوره ، ومعلوم أن هذا الترتيب الحاصل بين سور القرآن العظيم وآياته ليس فى مقدور بشر مهما كان عقله ومهما بلغت فصاحته وبيانه ، فكان فى ذلك آية على ثبوت نبوة النبى ﷺ (٣) .

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٥/١ ، ٧ ، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت .
(٢) البرهان فى علوم القرآن ٣٦/١ .
(٣) النبأ العظيم للدكتور / محمد عبدالله دراز ص ١٥٧ طبعة دار القلم – بيروت .

رابعا : أنواع المناسبات :

يجب أن نضع فى اعتبارنا أن القرآن الكريم قد جاء فى أرقى درجة من النظم، فليس فيه حرف زائد ، ولا كلمة وضعت فى غير موضعها ، بل إنه قد نظم فى أحكم عبارة ، ورتب فى أبدع ترتيب، فنظمه وأسلوبه وترتيبه كل ذلك بوحى من الله تعالى.

وقد عد العلماء من وجوه إعجازه : إنه بديع النظم ، عجيب التأليف متناه فى البلاغة إلى الحد الذى أعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، ومع ذلك لا يتفاوت ولا يتباين ، مع ما اشتمل عليه من ذكر قصص ، ومواعظ ، واحتجاج وحكم ، وأحكام ، وإعذار ، وإنذار ، ووعد ، ووعيد ، وتبشير ، وتخويف ، وتعليم أخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الموضوعات التى اشتمل عليها .

وقد جاء على كثرته وطوله متناسباً فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به : " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " (١) .

لذلك فاستخراج مناسبات القرآن الكريم بين آياته وسوره ما هو إلا نوع من أنواع إعجازه ، وهذا يدل على أنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وترجع المناسبة إلى معنى رابط بين الآيات وبين السور ، وهو إما أن يكون عاماً أو خاصاً ، عقلياً أو حسناً أو خيالياً ، ويكون تلازمه تلازماً ذهنياً ، كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين ، أو تلازماً خارجياً كالمرتب على ترتيب الوجوه من باب الخبر ، وغير ذلك من أنواع العلاقات (٢) .

ويبين العلماء كيفية الاهتداء إلى المناسبة ، فيقول ولى الدين الملوى : " والذى ينبغى فى كل آية أن يبحث أول كل شئ عن كونها مكملة لما قبلها ، أو مستقلة ،

(١) أول سورة هود .
(٢) البرهان فى علوم القرآن ٣٥/١ ، والاتقان فى علوم القرآن ١٠٨/٢ .

ثم المستقلة ما وجه مناسبتها ؟ وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له " (١) .

ونقل البقاعى عن شيخه أبى القاسم محمد المشدالى المغربى قوله : " الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية وكل سورة وسورة والله الهادى " (٢) .

وقد يدق ولا يظهر إلا بعد طول فكر وتأمل (٣) .

ولابد للمفسرين من تطبيق ذلك الأمر فى كل آية أو سورة كى يظهر أسرار القرآن الكريم فى التقديم أو التأخير ، والإيجاز أو الإطناب ، والشىء يذكر مرة أو يكرر ، والحكمة من ضرب الأمثال ، وقص القصص ، ثم القصص إذا كرر فلحكمة ولمعنى جديد لم يكن فى السورة الأخرى ، وفى ذلك تظهر البلاغة فى تغيير النظم حسب مقتضيات الأحوال واستشراف نفس السامع .

ومن أنواع المناسبات أيضاً مناسبة القسم للمقسم به ، والجواب للسؤال ، والترغيب أو الترهيب لما قرن له .

ومن المناسبات ما يرجع إلى الألفاظ أو الموضوعات أو إلى الإجمال أو التفصيل وغير ذلك .

(١) البرهان ٣٧/١ .

(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ١١/١ .

(٣) الإعجاز البيانى فى ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره للدكتور محمد أحمد القاسم ط : دار المطبوعات الدولية بميدان الجيش بالقاهرة ١٩٧٩ .

ومن الأنواع أيضاً ربط الآية بعضها ببعض ، وربط الآيات كذلك ، وربط نجوم السورة بعضها ببعض حتى تظهر السورة متحدة متناسقة يشد بعضها بعضاً ، ثم مناسبة السورة بعضها لبعض ، وإليك التفصيل .

١ - مناسبة أجزاء الآية :

الآية القرآنية هى بناء قد أحكمت لبناته ، ونسقت أدق تنسيق ، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها ، أو تنبو عن موضعها ، أو لا تعيش مع أخواتها ، حتى صار من العسير بل من المستحيل أن تغير فيها كلمة بكلمة ، أو أن تستغنى فيها عن لفظ أو تزيد فيها شيئاً (١) .

مثال ذلك : ائتلاف اللفظ مع اللفظ ، بأن يقرن الغريب بمثله ، والمتداول بمثله رعاية لحسن الجوار والمناسبة كقوله تعالى ﴿ قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا ﴾ (٢) . أتى بأغرب ألفاظ القسم وهى التاء ، فإنها أقل استعمالاً وأبعد من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو ، وبأغرب صيغ الأفعال التى ترفع الأسماء وتنصب الأخبار ، فإن تزال أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالاً منها ، وبأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحرض ، فاقتضى حسن الوضع فى النظم أن تجاوز كل لفظة بلفظة من جنسها فى الغرابة ، توخياً لحسن الجوار ورعاية فى ائتلاف المعانى بالألفاظ ولتعادل الألفاظ فى الوضع وتتناسب فى النظم (٣) .

وكذلك ائتلاف اللفظ مع المعنى المراد ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (٤) ، فلما كان الركون إلى الظالم ، وهو الميل إليه والاعتماد عليه دون مشاركته فى الظلم ، كان العقاب عليه دون العقاب على الظلم ، فأتى بلفظ المس الذى هو دون الإحراق والاصطلاء .

(١) من بلاغة القرآن للأستاذ أحمد بدوى ص ١٠٥ ، ط : نهضة مصر .

(٢) سورة يوسف الآية ٨٥ .

(٣) الإتقان فى علوم القرآن ٨٨/٢ .

(٤) سورة هود الآية ١١٢ .

وقوله جل شأنه : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [1] ، أتى بلفظ الاكتساب المشعر بالكلفة والمبالغة فى جانب السيئة لثقلها .

وقوله عز من قائل : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ [2] فإنه أبلغ من يصرخون للإشارة إلى أنهم يصرخون صراخاً منكراً خارجاً عن الحد المعتاد [3] .

ونجد القرآن الكريم يراعى مقتضى الحال فى ترتيب أجزاء الآية من تقديم أو تأخير ، ففى قوله تعالى فى سورة القصص فى قصة موسى عليه السلام : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ [4] ذكر المجرور بعد الفاعل وهو فى موضعه ، وفى قوله سبحانه فى سورة يس فى قصة رسل عيسى عليه السلام : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ [5] قدم المجرور لما كان أهم ، يبين ذلك أنه حين أخذ فى قصة الرسل اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية الرسل ، وأنهم أصروا على تكذيبهم ، وانهمكوا فى غوايتهم مستشرين على باطلهم ، فكان مظنة أن يلعن السامع ، على مجرى العادة تلك القرية قائلاً : ما أنكدها تربة ، وما أسوأها منبتاً ، ويبقى مجيلاً فكره أكانت تلك المدرة بحافاتها كذلك أم كان هناك قطر دانٍ أو قاصٍ منبت خير ، منتظراً لمساق الحديث ، هل يلم بذكره ؟ فكان لهذا العارض مهماً فلما جاز موضع له صالح ذكر ، بخلاف قصة موسى [6] .

ومن بديع صلة أجزاء الآية رد عجز الكلام على صدره ، كقوله الله عز وجل : ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [7] وكقوله سبحانه : ﴿ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ [8] .

(1) سورة الآية ٢٨٦ .

(2) سورة فاطر من الآية ٢٧ .

(3) الإتقان فى علوم القرآن ٨٨/٢ .

(4) سورة القصص من الآية ٣٠ .

(5) سورة يس من الآية ٢٠ .

(6) مفتاح العلوم للسكاكى ص ٢٣٨ ، ط : دار الكتب العلمية ، ط الأولى ١٩٨٣م ، وانظر البرهان للزركشى ٢٨٤/٣ ، ودرة التنزيل للخطيب الإسكافى ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(7) سورة الإسراء الآية ٢١ .

(8) سورة طه الآية ٦١ .

ومن باب مناسبة أجزاء الآية بعضها لبعض التذييل : مصدر " ذيل " للمبالغة، وهى لغة جعل الشئ ذيلاً للآخر ، واصطلاحاً : أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل فى معنى الأول تحقيقاً لدلالة منطوق الأول أو مفهومه ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ، ويكمل عند فهمه ، كقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [1] . أى هل يجازى ذلك الجزاء الذى يستحقه الكفور إلا الكفور ، فإن جعلنا الجزاء عاماً كان الثانى مفيداً فائدة زائدة وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [2] ، إلى غير ذلك من الآيات .

٢- مناسبة الآيات :

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم مترابط الآيات والسور ، لأنه ليس بكلام البشر ، بل كلام خالق القوى والقدر .

وذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى وكذلك إذا كانت الثانية بسبب من الأولى أو مؤكدة لها أو مفسدة أو معترضة أو بدلاً منها .

وإما أن لا يظهر الارتباط ، بل يظهر أن كل آية مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلال النوع المبدوء به ، وهذا القسم إما أن تكون آياته معطوفة بحرف من حروف العطف المشتركة فى الحكم أولا . فإن كانت معطوفة فلابد أن يكون بينها جهة جامعة، وإن لم تكن معطوفة فلابد من دعامة تؤذن باتصال الكلام بعضه ببعض ، وهى قرائن معنوية مؤذنة بالربط ، والفرق بين هذين الأخيرين أن الأول مزج لفظى ، وهذا مزج معنوى تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثانى ، وإليك تفصيل ذلك :

القسم الأول : الظاهر الارتباط [3] :

وهذا القسم ليس فى حاجة إلى جهد ومشقة فى استنباط المناسبة لأن الصلة بين الجزئين واضحة .

(1) سورة سبأ الآية ١٧ .

(2) سورة الأنبياء الآية ٢٤ ، وأنظر البرهان ٦٨/٣ : ٦٩ .

(3) انظر البرهان ٤٠/١-٤٦ ، والإتقان ١٠٨/٢ ، ١٠٩ .

مثال ذلك من باب السبب قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ • ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ (١) ، فبين فى الآية الثانية السبب الذى دفعهم لرفض حكم كتاب الله وتوليهم وإعراضهم وبينهما تلازم فى الذهن (٢) .

ومثال التأكيد قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ • يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ (٣) ، فالآية الثانية تقرر المعنى الأول وتؤكده ، فالمراد من سبيل الرشاد هو الهداية إلى طريق الجنة دار النعيم والاستقرار ، وفى تكرار " يا قوم " أيضا تأكيد لفظى .

ومثال التفسير (٤) قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا • إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا • وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (٥) ، فقوله " إذا مسه " فى الآيتين تفسير لهلوعا .

ومثال الاعتراض قول الله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ • وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ • إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (٦) فقد اعترض بين القسم وجوابه بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ ، وبين القسم وصفته بقوله " لو تعلمون " تعظيماً للقسم به ، وتحقيقاً لإجلاله وإعلاماً لهم بأن له عظمة لا يعلمونها .

ووجه حسن الاعتراض : حسن الإفادة لأنى يجىء بلا ترقب فيكون كالحسنة تأتيك من حيث لا تحتسب (٧) ، وفائدته فى هذه الآيات تعظيم المقسم به وإعلامهم بأنهم بعيدون عن تحقيق هذه العظمة (٨) .

---

(1) سورة آل عمران الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .
(2) الإعجاز البيانى أ. د/ محمد أحمد القاسم ص ٣١٣ ط الأولى سنة ١٩٧٩م .
(3) سورة غافر الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .
(4) هو أن يكون الكلام لبس وخفاء فيؤتى بما يزيله ويفسره ، الإعجاز البيانى فى ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره ص ٣١٣ .
(5) سورة المعارج الآيتان ٢٠ ، ٢١ .
(6) سورة الواقعة الآية ٧٥ : ٧٧ .
(7) الإتقان فى علوم القرآن ٧٥/٢ .
(8) الإعجاز البيانى ص ٣١٤.

ومثال البدل قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ • صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ (١) ، وقوله جل شأنه : ﴿ اهدنا الصِّرَاطَ المُستقيم • صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ﴾ (٢) ، فلفظ " صراط " الثانى فى الآيتين تأكيد للأول من كل منهما ، والقصد من البدل الإيضاح بعد الإبهام ، وهو يفيد البيان والتأكيد ، وليس كل بدل يقصد به رفع الإشكال والإبهام الذى يعرض فى المبدل منه ، بل من البدل ما يراد به التأكيد ، وإن كان ما قبله غنياً عنه كما هنا فى آية الشورى ألا ترى أنه لو لم يذكر الصراط الثانى لم يشك أحد أن الصراط المستقيم هو صراط الله (٣) .

القسم الثانى : الذى لا يظهر ارتباطه :

وهذا القسم نوعان : معطوف أو غير معطوف .

أولا : المعطوف : وهو عطف الآى بحرف من حروف العطف ، وفائدة العطف جعلها مشتركة فى الحكم مع سابقتها ، وأمثلة هذا النوع تظهر فى المطابقة والمقابلة .

والتطابق : هو أن يجمع بين متضادين مع مراعاة التقابل ، كالبياض والسواد والليل والنهار .

والمقابلة : هى ذكر الشىء مع ما يوازيه فى بعض صفاته ، ويخالفه فى بعضها ، وهى من باب " المفاعلة " كالمضاربة ، وهى قريبة من الطباق ، والفرق بينهما من وجهين :

الأول : أن الطباق لا يكون إلا بين الضدين غالباً ، والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالباً .

والثانى : لا يكون الطباق إلا بالأضداد ، والمقابلة بالأضداد وغيرها ، ولهذا جعل ابن الأثير الطباق أحد أنواع المقابلة (٤) .

---

(1) سورة الشورى من الآيتين ٥٢ ، ٥٣ .
(2) سورة الفاتحة من الآيتين ٦ ، ٧ .
(3) انظر : البرهان للزركشى ٤٥٣/٣ ، ٤٥٤ .
(4) المصدر السابق ٤٥٥/٣ ، ٤٥٨ .

مثال الأول : قو الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ (١) ، وقول سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ (٢) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ لما جعل التيسير مشتركاً بين الاعطاء والتقى والتصديق ، جعل التعسير مشتركاً بين أضداد تلك الأمور وهى المنع والاستغناء والتكذيب .

ومثال الثانى : قول الله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (٣) فقابل (صدق بـــ (كذب) و (صلى) الذى هو بمعنى الإقبال بـــ (وتولى) .

وقد يجيء نظم الكلام على غير صورة المقابلة فى الظاهر ، وإذا تؤمل كان من أكمل المقابلات ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ (٤) فقابل الجوع بالعرى والظمأ بالضحى ، والواقف مع الظاهر ربما يخيل إليه أن الجوع يقابل الظمأ ، والعرى بالضحى .

والمتأمل يرى أن هذا الكلام فى أعلى مراتب الفصاحة ، لأن الجوع ألم الباطن والضحى موجب لحرارة الظاهر ، فاقتضت الآية نفى جميع الآفات ظاهرا وباطناً ، وقابل الخلو بالخلو والاحتراق بالاحتراق (٥) .

ثانيا : غير المعطوف : وهذا النوع يعتمد الربط فيه على القرائن المعنوية يدركها المستنبط ببصرته النفاذة ، وله أسباب .

أحدها : التنظير (٦) : فإن إلحاق النظير بالنظير من البلاغة ودأب العقلاء ، ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ

(1) سورة النجم الآية ٤٣ ، ٤٤ .

(2) سورة فاطر الآية ١٩ : ٢٢ .

(3) سورة القيامة الآية ٣١ ، ٣٢ .

(4) سورة طه الآية ١١٨ ، ١١٩ . والضحو : الإصابة بحر الشمس .

(5) البرهان ٤٦٥/٣ .

(6) التنظير : هو المثل والشبه فى الأشكال والأخلاق والأفعال والأقوال ، ويقال : لا تناظر بكتاب الله ولا بكلام رسوله ، قال أبو عبيد : أى لا تجعل شيئاً نظيراً لكتاب الله ولا لكلام رسوله فتدعهما وتأخذ به . لسان العرب ٤٤٦٨/٦ (نظر) ، وانظر أساس البلاغة للزمخشرى ص ٩٦١ طبعة دار الشعب ١٩٦٠ .

لَكَارِهُونَ ﴾ (١) عقب قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢) فالتنظير هنا فى أن الغنائم لما انتزعت من أيدى المجاهدين فى أول الأمر وجعلت لله والرسول تألم بعضهم لحرمانه ، فألحق ذلك بكراهيتهم للخروج إلى الجهاد فى أول الأمر ، وتبينهم بعد ذلك أن فى الخروج الغنيمة والنصر وعز الإسلام وهلاك الأعداء ، كأنه يقول : ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٣) .

الثانى : المضادة ، كالحديث عن الكافرين بعد المؤمنين وعكس ذلك ، وهو كثير فى القرآن ، كمناسبة ذكر الرحمة بعد العذاب ، والرغبة بعد الرهبة . ومن عادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً ، ليكون ذلك باعثا على العمل بما سبق ، ويذكر آيات التوحيد والتنزيه ، ليعلم عظم الآمر الناهى جل شأنه (٤) .

ومن أمثلته قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾(٥) . فإن أول السورة كان حديثا عن القرآن وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان، فلما أكمل وصف المؤمنين عقب بحديث الكافرين ، فبينهما جامع وهمى ويسمى بالتضاد من هذا الوجه ، والحكمة من ذلك التشويق والثبوت على الأول كما قيل : وبضدها تتبين الأشياء .

فإن قيل : هذا جامع بعيد لأن كونه حديثا عن المؤمنين بالعرض لا بالذات ، والمقصود بالذات الذى هو مساق الكلام ، إنما الحديث عن القرآن لأنه مفتتح القول .

قيل : لا يشترط فى الجامع ذلك بل يكفى التعلق على أى وجه كان ، ويكفى فى وجه الربط ما ذكرنا لأن القصد تأكيد أمر القرآن والعمل به ، والحث على الإيمان، ولهذا لما فرغ من ذلك قال : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ (٦) الآية فرجع إلى الأول (٧) .

(1) سورة الأنفال الآية ٥ .

(2) سورة الأنفال الآية ٤ .

(3) سورة البقرة آية ٢١٦ ، وانظر : الإتقان ١٠٩/٢ .

(4) انظر البرهان ٤٠/١ .

(5) سورة البقرة آية ٦ .

(6) سورة البقرة آية ٢٣ .

(7) البرهان ٤٩/١ ، والإتقان ١٠٩/٢ .

الثالث : الاستطراد ، وهو أن يأخذ المتكلم فى معنى ، فبينما يمر فيه يأخذ فى معنى آخر ، وقد جعل الأول سببا إليه (١) .

ومن أمثلة الاستطراد ما جاء فى سورة الأعراف من الحديث عن قصة آدم وزوجه ووسوسة الشيطان لهما ، وبدو السوآت حيث قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، ثم قال سبحانه راجعاً إلى تكملة القصة : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ (٢) .

فكان وقع الاستطراد هنا فى غاية الحسن حتى لا تحس أن الكلام قد انتقل من الغرض الأول إلى غيره .

قال الزمحشرى : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد ، عقب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى (٣) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ... ﴾ (٤) الخ الآيتين ، وقد جاء قبلهما وبعدهما الحديث عن وصية لقمان لابنه ، وقد وقعت الآيتان استطرادا ، وذلك للتأكيد لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك بالله ، دون أن يشعر القارئ بالانتقال، ففى الآية الأولى ذكر الله تعالى خلق الإنسان والوصية بوالديه ، ثم نهاه عن طاعتهما فيما لو أمراه بالشرك فى الآية الثانية (٥) .

الرابع : حسن التخلص ، وهو الانتقال من معنى إلى معنى آخر على وجه سهل يختلسه اختلاساً بخيث لا يشعر السامع بالانتقال إلا وقد وقع عليه الثانى لشدة

(1) انظر : الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ٣١٦ طبعة الأستانة ١٣٢٠ هـ ، والاعجاز البيانى ص ٣١٩ .

(2) سورة الأعراف الآية ٢٦ ، ٢٧ .

(3) تفسير الكشاف ٢/٧٤ طبعة الحلبى ١٩٧٢م .

(4) سورة لقمان الآية ١٤ ، ١٥ .

(5) الإعجاز البيانى ص ٣٢٠ .

الالتحام بينهما . فيرى الكلام وقد أخذ بعضه بأعناق بعض من غير قطع ولا اقتضاب. وفائدته تنشيط السامع حتى لا يمل الحديث .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ (١) فتخلص منه إلى وصف المعاد بقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ .

فقد رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين ، فسألهم سؤال تقرير ثم عرج على آلهتهم بأنها لا تنفع ولا تضر ولا تبصر ولا تسمع ، والدافع إلى عبادتها ليس إلا التقليد ، ثم انتقل إلى ذكر الإله الخالق المعبود ، ونبذ ما وراءه مما سواه سبحانه ، ثم أراهم أنه ينصح نفسه ليقولوا ما نصحنا إلا بما نصح به نفسه .

فيكون ذلك أدعى لقبولهم فتخلص إلى ذكر الله تعالى فأجرى عليه تلك الصفات الجليلة ، من تفخيم شأنه وتعديد نعمه عليه ، من لدن خلقه إلى مماته ، ثم يرجى من رحمته فى الآخرة ، ولا يملك ذلك كله إلا المعبود الحقيق بالتعظيم .

ثم خرج من هذا إلى الدعاء بما يناسب المقام ، وذكر فى أثناء دعائه " ولا يخزنى يوم يبعثون " ثم توصل من هذا إلى ذكر البعث ويوم الجزاء ، وذكر أهل الجنة والنار .

" فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض ، مع احتوائه على ضروب المعانى ، فيخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطيفة ملائمة حتى كأنه أفرغ فى قالب واحد " (٢) . فقد تخلص من ذكر الأصنام إلى ذكر الله تعالى .

ثم انتقل من ذكره سبحانه إلى وصف يوم القيامة والثواب والعقاب ، بأسلوب يسحر الألباب ويسكر العقول (٣) .

(1) سورة الشعراء الآيات ٦٩ : ٨٨ .

(2) المثل السائر ص ٢٧٨ لابن الأثير الأولى ١٩٢٥م ، مطبعة حجازى .

(3) الإعجاز البيانى ص ٣٢٣ .

والفرق بينه وبين الاستطراد : أنك فى التخلص تركت ما كنت فيه بالكلية وأقبلت على ما تخلصت إليه ، وأما فى الاستطراد تمر بذكر الأمر الذى استطردت إليه مروراً سريعاً ثم تتركه وتعود إلى ما ملكت فيه وكأنك لم تقصده (١) .

ويقرب من حسن التخلص حسن المطلب – قال الزنجانى والطيبى : وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة كقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) بعد ذكر الله تعالى ومدحه بما هو أهله ، وتقديم العبادة وهى وسائل : طلب الاستعانة (٣) .

قال الطيبى : ومما اجتمع فيه حسن التخلص والمطلب معاً : قوله حكاية عن إبراهيم : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ 77}} الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٤) .

الخامس : الانتقال من حديث إلى حديث آخر تنشيطاً للسامع . والقرآن الكريم إذا ذكر أنواعاً من الشرائع والتكاليف أتبعها بالعقيدة ، من شرح صفات الله تعالى ، أو حال الأنبياء أو أحوال القيامة ، كل ذلك تأكيداً للأحكام التى سبقت ، وإنما لم يفرد لكل نوع فصلاً مستقلاً ، لأن القرآن ليس كتاباً فنياً ، فيكون لكل مقصد من مقاصده باب خاص به ، ويعود إلى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة مع التفنن فى العبارة والتنويع فى البيان حتى لا يمل تاليه وسامعه من المواظبة على الاهتداء . يوجز أحياناً بما يعجز كل أحد عن الإتيان بمثله ، إذا كان المقام يقتضى الإيجاز ، ويطنب فى مقام آخر حيث ينبغى الإطناب وهو معجز فى إطنابه وإيجازه ، لا لغو فيه ولا حشو ، ولكل مقام مقال ؛ (٥) .

مثال ذلك : قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ ﴾ عقب قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ

(1) الإتقان ١٠٩/٢ ، ١١٠ .

(2) سورة الفاتحة الآية ٥ .

(3) الإعجاز البيانى ص ٣٢٣ .

(4) سورة الشعراء الآيات ٧٧ – ٨٣ . وانظر : الإتقان فى علوم القرآن ١١٠/٢ .

(5) تفسير المنار ٤٥١/٢ للشيخ السيد محمد رشيد رضا طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى ﴾ (١) وما قبلها من التكاليف المذكورة فى سورة النساء ، فقد انتقل من هذه الآية إلى بيان أحوال أعداء الدين وأقاصيص المتقدمين ، لأن البقاء فى النوع الواحد من العلم مما يكل الطبع ويكدر الخاطر ، ثم لما شرح بعض أحوالهم ، وذكر الوعد والوعيد عاد إلى ذكر التكاليف مرة أخرى فقال : ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ (٢) .

ومن الانتقال من كلام إلى كلام آخر أيضاً الربط بين الحديثين باسم الإشارة كقوله تعالى فى سورة ص بعد ذكر الأنبياء : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾(٣).

فإن هذا القرآن نوع من الذكر ، لما انتهى ذكر الأنبياء وهو نوع من التنزيل أراد أن يذكر نوعاً آخر وهو ذكر الجنة وأهلها ، ثم لما فرغ قال : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ (٤) .

قال ابن الأثير : هذا فى هذا المقام من الفصل الذى هو أحسن من الوصل وهى علاقة أكيدة بين الخروج من كلام إلى آخر (٥) .

٣- مناسبة نجوم السورة (٦) :

يتألف القرآن الكريم من سورة مختلفة ، لكل منها اسم خاص ، أخذ مما عالجته السورة من المعانى ، أو مما تحدثت عنه من إنسان وحيوان أو غيرهما ، أو من بعض كلماتها .

وتنقسم السور إلى قسمين : قسم تكون من موضوع واحد ، وهو غالب فى السور القصيرة كسورة النبأ ، والنازعات ، والإنشقاق ، والفيل ، وقريش وغيرها .

(1) سورة النساء الآيات من الآية ٤٢ – ٤٣ .

(2) مفاتيح الغيب للرازى ٢٣٥/٣ ، وانظر : الإعجاز البيانى ص ٣٢٤ .

(3) سورة ص الآية ٤٩ .

(4) سورة ص الآية ٥٥ ، وانظر البرهان ٥٠/١ .

(5) الإتقان ١١٠/٢ .

(6) نجوم جمع نجم، وهو القطعة من القرآن تنزل على رسول الله ﷺ، وقد نزل القرآن نجوماً متفرقة فى ثلاث وعشرين سنة ، وقد ينزل النجم سورة كاملة ، أو بضع آيات أو آية أو بعض آية .

وقسم تكون من موضوعات شتى وأغراض مختلفة – وهو القسم الغالب على السور – كالبقرة وآل عمران والمائدة وغيرها .

ذلك هو منهج القرآن ينتقل بين الأغراض المختلفة لا اعتباطاً ولا ضبط عشواء ، ولكن لصلات وثيقة تربط بين هذه الموضوعات والأغراض بحيث تتضافر جميعها فى الوصول إلى الغاية القصوى وتحقيقها (١) .

وهذا الترابط بين أغراض السورة الواحدة يدل فى الوقت ذاته على ناحية من نواحى الإعجاز ، وذلك لأن السورة لم تنزل فى زمن متحد ، فهناك بعض السور لم تتكامل وحدتها إلا فى بضع سنين كسورة البقرة ، فقد كانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً (٢) .

ومع ذلك لن تجد البته فى نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت فى نجم واحد أم فى نجوم شتى .

أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعانى حشيت حشواً ، وأوزاعاً من المبانى جمعت عفواً ، فإذا هى لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول ، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول ، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية فى بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة لا تحس بشىء من تناكر الأوضاع فى التقسيم والتنسيق ، ولا بشىء من الانفصال فى الخروج من طريق إلى طريق ، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة ، كما ترى بين آحاد

(1) انظر التعبير الفنى فى القرآن بكرى شيخ أمين ص ٢٠٨ .

(2) ففيها ذكر تحويل القبلة ، وذكر صيام رمضان ، وذكر أول قتال وقع فى الإسلام فنزل بسببه قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ... ﴾ وكل أولئك كان نزولهن فى أوائل السنة الثانية من الهجرة ، وفيها تلك الآية الخاتمة التى نزلت فى آخر السنة العاشرة من الهجرة وهى آخر آية نزلت من القرآن باطلاق ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ وفيها ما بين ذلك هامش النبأ العظيم أ. د. محمد عبدالله دراز ص ١٩٨ .

الجنس الواحد نهاية التضام والإلتحام ، كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعانى أنفسها ، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد فى مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه ، يريك المنفصل متصلاً ، والمختلف مؤتلفاً (١) .

وإذا أمعنا النظر فى آيات السورة الواحدة وقفنا على الأمور التالية :

(١) قد تكون الآية الثانية صفة لكلمة فى الآية الأولى كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢) .

(٢) وقد تكون الآية الثانية توكيداً لفكرة الآية الأولى ، كما تجد ذلك فى قوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

(٣) وقد تكون الآية الثانية رداً على ما فى الآية الأولى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤) .

(٤) وقد تحمل الآية الثانية فكرة مضادة لفكرة سابقتها ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ

(1) النبأ العظيم ص ١٩٥

(2) سورة البقرة الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(3) سورة البقرة الآيات ٩٤ : ٩٦ .

(4) سورة البقرة الآيات ٨٠ : ٨٢ .

منهَا من ثَمرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١)

(٥) وقد تكون الآية الثانية تعليلاً لحكم ورد فى الآية الأولى ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ {١٧٨} وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢)

(٦) وقد تكون الآية الثانية تحبيباً أو تبغيضاً لفكرة وردت فى الآية الأولى ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ (٣)

(٧) وقد تكون الآية الثانية دليلاً على صحة ما ورد فى الآية الأولى وشاهداً داعماً لها ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤).

وبعد فإن الصلة وثيقة بين الآية والآية ، لكن إدراك هذه الصلة يتطلب فى بعض الأحيان تريثاً وتدبراً .

انظر قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ

(١) سورة البقرة الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) سورة البقرة الآيتان ١٧٨ ، ١٧٩

(٣) سورة البقرة الآيات ٢ : ٧ .

(٤) سورة البقرة الآيتان ١٦٣ ، ١٦٤ .

يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

فالصلة بين الآية الأولى والثانية إذا أمعنت النظر فى الآية الأولى بشىء مما أنزل الله ، فهم يسعون فى تقويض أسس الأديان جميعاً ، لا فرق عندهم بين دين ودين، وهم لذلك يعملون على أن يحولوا بين المسلمين وعبادة الله ، ويسعونفى تخريب بيوت عبادته ، ومن هنا صح هذا الاستفهام الذى يدل على أنه لا أظلم من هؤلاء الذين لا يعلمون ، وارتباط الثالثة بما قبلها لدلالتها على أن عبادة الله ليست فى حاجة إلى مسجد يقام ، بل لله المشرق والمغرب فحيثما كنتم ففى استطاعتكم عبادة الله ، لأن ثمة وجه الله (٢) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ (٣) . فإن مناسبتها للآية التى قبلها وهى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ﴾ (٤) ، أن ذلك إشارة إلى كعب بن الأشرف كان قدم إلى مكة ، وشاهد قتلى بدر، وحرض الكفار على الأخذ بثأرهم ، وغزو النبى ﷺ ، فسألوه من أهدى سبيلا ؟ النبى ﷺ أو هم ؟ فقال : أنتم – كذباً منه وضلالة – لعنه الله ! فتلك الآية فى حقه وحق من شاركه فى تلك المقالة ، وهم أهل الكتاب يجدون عندهم فى كتابهم بعث النبى ﷺ وصفته ، وقد أخذت عليهم المواثيق ألا يكتموا ذلك وأن ينصروه ، وكان ذلك أمانة لازمة لهم فلم يؤدوها وخانوا فيها ، وذلك مناسب لقوله : ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ ، قال ابن العربى فى تفسيره : وجه النظم أنه أخبر عن كتمان

(١) سورة البقرة الآيات ١١٣ : ١١٥ .

(٢) التعبير الفنى للأستاذ / بكرى شيخ أمين ص ٢٠٨ : ٢١٠ .

(٣) سورة النساء الآية ٥٨ .

(٤) سورة النساء الآية ٥١ .

أهل الكتاب صفة محمد ﷺ ، وقولهم : إن المشركين أهدى سبيلا ، فكان ذلك خيانة منهم ، فانجر الكلام إلى ذكر جميع الأمانات [١] .

قال بعض المتأخرين : الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية فى كل سورة [٢] .

ولكل سورة فى القرآن مقصد وهدف ترمى إليه ، فنجد سورة الفاتحة مثلاً تتجه إلى إحساس العباد بمراقبة الله لهم ، وتجد سورة البقرة تتجه إلى ذكر الكتاب وأوصافه ، وسورة آل عمران تتجه إلى تقرير مبدأ التوحيد ، وسورة النساء إلى الاجتماع على التوحيد ، وسورة المائدة إلى الوفاء بما هدى إليه الكتاب ، وسورة الأنعام إلى الاستدلال على ما دعى إليه الكتاب ، وسورة الأعراف إلى إنذار من أعرض عما دعى إليه الكتاب ، وسورة الأنفال إلى تبرئة العباد من الحول والقوة ، وحثهم على التسليم لأمر الله واعتقاد أن الأمور ليست إلا بيده .... وهكذا تجد هدفاً عاماً تدور حوله السورة ، وتتبعه معان أخرى تؤكده ، ويخلص الإنسان فى السورة من معنى إلى آخر خلوصاً طبيعياً لا عسر فيه ولا اقتسار .

ولنحلل سورة من القرآن نتبين فيها منهجه ، وندرك مدى تأثير هذا المنهج فى النفس الإنسانية .

ففى سورة المزمل والهدف منها تهيئة الرسول ﷺ للدعوة ، وإعداده لما سيلقاه فى سبيلها من متاعب ومشاق بدئت السورة بنداء الرسول وتكليفه بما يعده لحمل أعباء الرسالة فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ

(1) البرهان فى علوم القرآن ٣٦/١ .

(2) الإتقان فى علوم القرآن ١١٠/٣ .

وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [١] .

ألا تراه يعده بهذه الرياضة النفسية الشاقة لتحمل أعباء الرسالة المضنية فليمض الليل أو جزء منه فى التهجد وقراءة القرآن استعداداً لما سيلقى عليه من تكاليف شاقة ثقيلة ، وإنما أمر الرسول ﷺ بالتهجد فى الليل لأن السهر فيه أشق على النفس ، ولكنها تخلص فيه لله ، وتفرغ من مشاغل النهار وصوارفه ، وأمر بذكر الله والإخلاص له تمام الإخلاص فهو رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو .

بعد هذا الإعداد بالرياضة أراد أن يوطنه على تحمل الأذى فى سبيل هذه الدعوة والصبر عليه وينذر هؤلاء المكذبين بما سيجدونه يوم القيامة من عذاب شديد ، وهنا يجد المجال فسيحاً لوصف هذا اليوم وصفاً يبعث الرهبة فى النفس ، والخوف فى القلب ، عساها تكف عن العناد ، وتنصاع إلى الصواب والحق ، ولا ينسى أن يضرب المثل فى التاريخ لمن كذب وعصى كى يكون عظة وذكرى ، فقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا * إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ [٢] .

فأنت ترى الانتقال طبيعياً من توطين الرسول ﷺ على الأذى ، ثم بعث الطمأنينة إلى نفسه بأن الله سيتكفل عنه بتأديب المكذبين بما أعده الله لهم من عذاب أليم يوم القيامة ، وتأمل ما يبعثه فى النفس تصور هذا اليوم الذى ترجف فيه الأرض ، وتنهار الجبال فيه منهالة ، وينتقل إلى الحديث عن عاقبة من كذب بالرسل من أسلافهم، ثم يتجه إليهم ، موجهاً لهم الخطاب يسألهم متعجباً ، عما أعدوه من وقاية لأنفسهم يصونونها من هول يوم ، يشيب الطفل فيه من شدته ، وحسبك أن ترفع الطرف إلى أعلى فترى السماء التى أحكم بناؤها ، قد فقدت توازنها ، وتصدع بناؤها .

(1) سورة المزمل الآيات ١ : ٩ .

(2) سورة المزمل الآيات ١٠ : ١٨ .

ويختم هذا الإنذار بجملة تدفع النفس إلى التفكير العميق ، وتفتح أمامها باب الأمل والنجاة لمن أراد أن يظفر وينجو ، إذ قال جل شأنه : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ (١) ، ألا تحس فى هذه الجملة الكريمة معنى إلقاء المغبة على عاتق هؤلاء المنذرين ، وأنهم المسئولون عما يحيق بهم من ألم وشقاء ، أوليس فى ذلك ما يحفزهم إلى التفكير الهادى المتزن ن عساهم أن يتخذون إلى ربهم سبيلا ؟ .

وينتقل القرآن من إنذاره لهؤلاء المكذبين إلى خطابه للمطيعين ، وهم الرسول ﷺ وطائفة ممن معه ، فيشكر لهم طاعتهم ، ولا يرهقهم من أمرهم عسراً ، ويطلب إليهم القيام ببعض الفروض ويحببها إليهم ، فهم عندما يؤتون الزكاة يقرضون الله ، ومن أوفى بأداء الحقوق منه سبحانه ، ويختم خطابه لهم بوصفه بالغفران والرحمة فيقول عز من قائل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) ، فأنت ترى فى هذه الآية الكريمة مدى الرفق فى خطاب المطيعين ، وما أعد لهم من رحمة وغفران فى مقابل ما لدى الله من أنكال وجحيم لهؤلاء المكذبين .

أنت بذلك التحليل ترى مدى الترابط بين الأغراض المختلفة ، واتساق كل غرض مع صاحبه ، وحسن التخلص وطبيعة الانتقال من غرض إلى آخر ، وتستطيع أن تمضى فى تحليل سورة القرآن على هذا النسق ، وسوف ترى الربط بين الأغراض قوياً وثيقاً (٣) .

وبعد هذا نستطيع أن نقول مطمئنين لو جمعنا آيات الأحكام فى سورة أو عدة سور ، وجمعنا القصص فى سورة أو عدة سور ، وجمعنا حوادث التاريخ فى سورة أو

(١) سورة المزمل الآية ١٩ .

(٢) سورة المزمل الآية ٢٠ .

(٣) من بلاغة القرآن أحمد بدوى ص ٢٣٤ : ٢٣٧ .

عدة سور لضاع هدف القرآن ، وتجمع بين أيدينا جذاذات لا هى بالتاريخ ولا بالقصص ولا بالأحكام ، ولصناع التأثير النفسى والنكهة القرآنية ، والجمال الأخاذ الذى يحر نفوس العرب وملك عليهم قلوبهم ، وابكى عمر رضى الله عنه حين قرأ بعض آيات ودفعه دفعاً إلى الإسلام (١) .

ومما يجدر التنبه له التعرف على الانسجام الكامل التام بين أول السورة الكريمة ونهايتها ، فعلى سبيل المثال سورة القصص التى ابتدأت بالحديث عن نبى الله موسى عليه السلام والوعد برده إلى أمه ، ودعائه ألا يكون ظهيراً للمجرمين نجدها قد ختمت بالحديث عن النبى محمد ﷺ وتسليته عن إخراجه من مكة أم القرى ووعده بالرجوع إليها ، وقيل له : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

وسورة المؤمنون افتتحت بفلاحهم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) ، وورد فى خاتمتها : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤) ، وشتان ما بين الفاتحة والخاتمة .

وفى سورة ص بدأها جل وعلا بالذكر فقال : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ (٥) ، وختمها به فقال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٦) .

وفى سورة القلم بدأها جل شأنه بنفى ما رمى به النبى ﷺ من الجنون فقال : ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾(٧)، وفى خاتمتها قص قول المشركين فقال :﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٨) فسبحان من ** عن رسوله التهمة قبل إلصاقها به ﷺ .

(١) التعبير الفنى للأستاذ / بكرى شيخ أمين .

(٢) سورة القصص الآية ٨٦ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ١ .

(٤) سورة المؤمنون الآية ١١٧ .

(٥) سورة ص الآية ١ .

(٦) سورة ص الآية ٨٧ .

(٧) سورة القلم الآية ٢ .

(٨) سورة القلم الآية ٥١ ، وانظر الإتقان فى علوم القرآن ١١١/٢ .

٤- مناسبة السور :

لقد عرف العلماء السورة بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن لها بداية ونهاية، وأقلها ثلاث آيات .

وقد اختلف العلماء ترتيب السور فى المصاحف ، فمنهم من قال : إن ترتيب السور توقيفى ، ومنهم من قال : إن ترتيب السور وقع باجتهاد من الصحابة – رضى الله تعالى عنهم – ومنهم من توسط وقال : إن ترتيب السور بعضه بالتوقيف وبعضه بالاجتهاد .

وكل من القائلين بأن الترتيب أو بعضه بالاجتهاد إلا أنهم لم ينفوا وجود المناسبة بين السور ، فالجميع متفقون على أن استخراج المناسبة يتبع الناحية العقلية .

قال الزركشى : وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته فى غاية المناسبة لما ختم السورة قبلها ، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى ، كافتتاح الأنعام بالحمد فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء ، كما قال سبحانه : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

وكافتتاح سورة فاطر " الحمد " أيضا ، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ (٢) . وكما قال تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح ، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر بالتسبيح فى قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٤) .

أنواع مناسبة السور

إن المناسبة بين السورتين أو أكثر عامة وشاملة ، فقد تكون ظاهرة فى اتحاد موضوعها ، كما قد تكون واضحة فى تشابه ألفاظهما ، وقد تكون أظهر فى بدء السورة وآخر ما قبلها ، أو بين افتتاح كل من السورتين .

(1) سورة المائدة الآية ١٢٠ .

(2) سورة سبأ الآية ٥٤ .

(3) سورة الأنعام الآية ٤٥ .

(4) سورة الواقعة الآية ٩٦ ، وأنظر : البرهان ٣٨/١ .

وليس معنى ذلك أن السورة قد انفردت بنوع واحد من أنواع الربط الذى سبقت الإشارة إليه ، بل إنها قد تحوى أكثر من نوع من أنواع الربط .

وإليك بيان هذه الأنواع :

أولا : مناسبة فاتحة السورة لفاتحة ما قبلها ، وذلك باتحاد الحروف أو تشاكلها واقترابها – كالحواميم والطواسين .

فالملاحظ : أن جميعها قد اتفقت فى البدء بالحروف المقطعة وجاء عقب كل حرف فى بداية التنويه بشأن الوحى والكتاب المنزل على رسول الله ﷺ . واتفقت فى كونها مكية ، ثم جاء الحديث فيها عن أصول الدين الثلاثة : التوحيد ، والرسالة ، والبعث شأن كل السور المكية ، وإن كان أسلوب العرض يختلف من سورة إلى أخرى.

ثانيا : مناسبة أول السورة لآخر ما قبلها ، كآخر سورة الحمد فى المعنى وأول سورة البقرة .

قال الخوبى : " أوائل سورة البقرة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة لأن الله لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى قال : قد أعطيتكم ما طلبتم هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسئول ، ثم إنه ذكر فى أوائل هذه السورة، الطوائف الثلاث الذين ذكرهم فى الفاتحة ، فذكر الذين على هدى من ربهم ، وهم المنعم عليهم ، والذين اشتروا الضلالة بالهدى ، وهم الضالون ، والذين باءوا بغضب من الله ، وهم المغضوب عليهم " (١) .

وكذلك آخر سورة البقرة فإنه مناسب لأول سورة آل عمران حيث ختمت سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ . وافتتحت سورة آل عمران ببيان بعض صفات الله ﴿ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ لتأكيد أنه أهل لأن يتوجه بتلك الطلبات فى الآية السابقة ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ إلى ختام السورة ن ثم بيان الكتب التى آمن بها الرسول والمؤمنون ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ

(1) أسرار ترتيب القرآن للسيوطى ٧٨/١ طبعة دار الاعتصام بالقاهرة ، تحقيق عبدالقادر عطا .

﴿ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ وهذه أمهات الكتب السماوية ، ثم عم بقيتها ﴿ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ ، ثم اتبع هذا ببيان أن المؤمنين آمنوا بالكتاب كله ، لم يفرقوا بين محكمه ومتشابهه ، كما لم يفرقوا بين أحد من رسله .

ثم مناسبة قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله ﴾ وبقية الكتب ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ ظاهرة ، وهى أن الله ينتقم من الكفار بنصر المؤمنين عليهم ، استجابة لدعائهم السابق : " فانصرنا على القوم الكافرين " [١] .

وأيضا آخر سورة آل عمران مناسب لأول سورة النساء حيث ختمت سورة آل عمران بالأمر بالتقوى وافتتحت سورة النساء ، وذلك من آكد وجوه المناسبات فى ترتيب السور [٢] .

وكذلك آخر سورة النساء مناسب لأول سورة المائدة حيث ختمت سورة النساء بالأمر بالتوحيد والعدل بين العباد وأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ ﴾ [٣] ، وهكذا فى جميع سور القرآن .

ثالثا : المناسبة اللفظية : ومثل هذا النوع يظهر بين بدء السورة وختام ما قبلها، كقوله تعالى فى آخر سورة الطور : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [٤] ثم قال فى السورة التى تليها : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ [٥] .

وفى آخر سورة الواقعة : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [٦] وفى أول سورة الحديد التى تليها : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

رابعا : مشابهة جملة السور لجملة الأخرى - بمعنى التقاء السورتين فى غرض واحد ، كسورتى : الضحى ، وألم نشرح .

---

(١) مباحث فى علوم القرآن للدكتور/ محمد عبدالرحمن ص ٩٢،٩٣ نقلا عن جواهر البيان ص٢٧.

(٢) روح المعانى للألوسى ١٧٩/٤.

(٣) الإتقان ١١١/٢ .

(٤) سورة الطور الآية ٤٩ .

(٥) أول سورة النجم .

(٦) سورة الواقعة الآية ٩٦ .

ففى سورة الضحى : نفى الله تعالى ترك نبيه محمد ﷺ وقلاءه ردا لدعوى بعض المشركين ذلك ، وامتن عليه ببعض نعم أنعم عليه بها قبل النبوة ، ثم قال له : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، وذكر فى سورة الشرح نعما منحه إياها فى بدء النبوة وبعدها ، وهى شرح صدره ، ووضع وزره ، ورفع ذكره ، وتيسير العسير له ، فالسورتان متناسبتان فى الموضوع ، متقاسمتان بيان فضل النبى ﷺ [١] .

خامسا : مقابلة المعانى فى سورة لمعان فى سورة قبلها ، كسورة الماعون والكوثر ، فمن لطائف سورة الكوثر : أنها كالمقابلة للماعون ، فقد وصف الله المنافق فى المعاون بأربعة أمور هى :

١- البخل ، وهو المراد من قوله :﴿ يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ .

٢- ترك الصلاة ، وهو المراد من قوله :﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .

٣- الرياء فيها ، وهو المراد من قوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ﴾ .

٤- منع الزكاة ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .

ثم ذكر سبحانه فى سورة الكوثر ما أفاض به على نبيه محمد ﷺ من الخير الكثير الدائم فى الدنيا والآخرة الذى من جملته هذا النهر العظيم والحوض المطهر ، وما يجب عليه تجاه هذه النعم بشكره سبحانه ، وكان ما ذكر فى السورة الكريمة مقابل لتلك الصفات السابقة .

١- فذكر فى مقابلة البخل قوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .

٢- وفى مقابلة ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ ﴾ قوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ أى دم عليها .

٣- وفى مقابلة ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ﴾ قوله : ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ ائت بالصلاة لرضا ربك، لا لرضاء ومراءاتهم .

٤- وفى مقابلة : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قوله : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ ، وأراد به التصدق بلحم الأضاحى [٢] .

هذا وأرجو أن أكون قد وفيت بما وعدت به من إلقاء الضوء على موقف العلماء من علم المناسبات وإبراز أهمية هذا العلم وبيان ثمرته ن وثم الحديث عن

---

(١) مباحث فى علوم القرآن ص ٩٤ نقلا : عن جواهر البيان .

(٢) الإتقان للسيوطى ١١٢/٢ .

بعض أنواع المناسبات الخ وإذا كان من صواب فمن الله تعالى وحده الفضل والتوفيق وإن كانت الأخرى فمنى ومن الشيطان وحسبى حسن النية وصلاح القصد وإفراغ الجهد ، والكمال لله وحده والعصمة لأنبيائه ورسله . وصلى الله وسلم وبارك على من أنزل عليه القرآن وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين .

الخاتمة

١- أن كثيرا من العلماء قد اهتموا بعلم المناسبات وأفردوا له المؤلفات ، أوضمنوه بعض مؤلفاتهم ، على الرغم من أن البعض قد اعتبر الاشتغال بهذا العلم مضيعة للوقت لا يعود بفائدة ، بل هو من قبيل التفسير بالرأى المنهى عنه .

٢- يعتبر علم المناسبات من العلوم المهمة التى تبرز إعجاز القرآن الكريم ، وذلك من خلال اظهار الترابط والتناسق بين أجزاء الكلام ، وإظهاره كأنه سبيكة واحدة تأخذ كل حلقة فيها بعنق التى قبلها والتى بعدها .

٣- أن المناسبة قد تكون ظاهرة وقد تكون غير ظاهرة وقد تكون لفظية ، وقد تكون من قبيل المعانى .

٤- قد توجد المناسبة بأكثر من رابط بين كل سورتين أو أكثر ، وذلك من خلال اتفاق السورة فى افتتاحها مع افتتاح السورة التى قبلها ، أو من خلال اتفاق ختامها مع افتتاح التى قبلها ، وقد تكون بين ما اشتملت عليه السورة والتى قبلها من موضوعات .

وفى الختام : أصلى وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه

د- صبرة الحسينى الرفاعى مرسى

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات – بالقاهرة

المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم .

٢- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى – طبعة دار الكتب العلمية – الأولى – بيروت، لبنان .

٣- أساس البلاغة للزمخشرى – طبعة دار الشعب ١٩٦٠ .

٤- أسرار ترتيب القرآن للسيوطى طبعة دار الاعتصام بالقاهرة – تحقيق/ عبدالقادر أحمد عطا .

٥- الإعجاز البيانى فى ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره للدكتور/ محمد أحمد القاسم . ط الأولى – بدار المطبوعات الدولية بميدان الجيش بالقاهرة ١٩٧٩ .

٦- البرهان فى علوم القرآن للزركشى طبعة المكتبة العصرية صيدا – بيروت – تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم .

٧- التعبير الفنى فى القرآن . بكرى شيخ أمين .

٨- التفسير التحليلى لسورة النساء للدكتور/ إبراهيم خليفة – ط الأولى .

٩- تفسير المنار للشيخ السيد محمد رشيد رضا – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ .

١٠- جواهر البيان للشيخ/ عبدالله محمد الصديق الغمارى .

١١- درة التنزيل للخطيب الإسكافى .

١٢- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى .

١٣- علم المناسبات فى السور والآيات للدكتور/ محمد بن عمر بازمول – طبعة المكتبة المكية بالسعودية .

١٤- فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية فى التفسير للشوكانى – دار الفكر ببيروت ١٤٠٧ هـ .

١٥- فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب – طبعة دار الشروق – الطبعة الثانية عشر ١٤٠٦ هـ – ١٩٧٦ م .

١٦- الكشاف عن حقائق التزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى – طبعة مصطفى الحلبى الطبعة الأخيرة ١٩٧٢م .

١٧- لسان العرب لابن منظور – طبعة دار صادر بيروت الأولى .

١٨- مختار الصحاح للرازى – طبعة مكتبة لبنان ، بيروت – تحقيق/ محمد خاطر .

١٩- المصباح المنير للجوهرى .

٢٠- معجم مقاييس اللغة لابن فارس – ط . دار الكتب العلمية ، تحقيق/ عبدالسلام هارون .

٢١- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى – دار إحياء التراث العربى بيروت .

٢٢- مفتاح العلوم للسكاكى . ط. دار الكتب العلمية ط. الأولى ١٩٨٣ .

٢٣- من بلاغة القرآن للأستاذ أحمد بدوى ط. نهضة مصر ١٣٧٠ هـ .

٢٤- النبأ العظيم للدكتور/ محمد عبدالله دراز طبعة دار القلم بيروت .

٢٥- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى . طبعة دار الكتب العلمية – بيروت .